الفصل الثالث

التفكير الفلسفي

"أيتها الفلسفة أنت المدبرة لحياتنا.

أنت صديق الفضيلة وعدو الرذيلة،

ماذا نكون وماذا تكون حياة الناس لولاك!"

شيشيرون

فوضى التعريف

عودتنا كتب الفلسفة التي تقدم لعامة القراء أن تطالعنا في السطور الأولى بمعنى كلمة فلسفة فتردد إنها كلمة من أصل يوناني مركبة من "فيلو" أي محب و "سوفيا" أي الحكمة، وتنتهي من ذلك إلى أن الفلسفة معناها "محبة الحكمة". ثم تمضي لتؤكد في جرأة أن أول من استعمل الكلمة للدلالة على علوم الفلسفة عالم يوناني من أعلام الرياضة والفلك والموسيقى، فيشاغورس الذي توفى في القرن الخامس قبل الميلاد؛ إذ قال: "لست حكيماً، فالحكمة لا يتصف بها غير الآلهة وما أنا إلا محب للحكمة". تردد الكتب ذلك القول مع أنه لم يثبت بالدليل التاريخي البات أن فيثاغورس أول من استعمل كلمة فلسفة بمعنى اصطلاحي، فالمؤرخ

"هيرودوت" يذكر أن "كريزوس" قال "لصولون" إنه سمع أن صولون قد جاب كثيراً من الأقطار يتفلسف، وإن الذي دفعه إلى ذلك رغبته في المعرفة[١].

ولذلك يحق لنا أن نرجح أن هيرودوت أول من استعملها للدلالة على علم من العلوم، أو– على الأقل– أن نشك في نسبتها إلى فيثاغورس.

وعودنا جمهور المثقفين أن يتساءل عن معنى الفلسفة، ويتطلب تعريفاً جامعاً مانعاً لها في كلمات قلائل، ولما كان موضوع الفلسفة غير واضح المعالم، غير محدود الأفق، ولما كانت المعرفة الفلسفية متشعبة الأطراف، متنوعة الاتجاهات حتى ليستحيل أن تفضي إلى نتائج ثابتة نهائية شأن العلوم المختلفة، لما كان الأمر كذلك تعذر تعريف الفلسفة على اعتبار أنها لون من ألوان التفكير البشري، أو فرع من فروع المعرفة الإنسانية.

وإذا كان الفلاسفة قد تصدوا لتعريفها فإن تعريفاً واحداً من تعريفاتهم لم ينج من النقد فضلاً عن التقريع، حتى ليتعذر علينا أن نجد فيلسوفين يتفقان على تعريف واحد. سر ذلك أن كل فيلسوف إذ يتصدى للتعريف إنما يكون واقعاً تحت تأثير فلسفته الخاصة فيكون التعريف الذي ينتهي إليه مجرد عبارة قصيرة توجز فلسفته، وتركز مذهبه.

---

[١] المدخل إلى الفلسفة تأليف كولبه وترجمة أستاذنا الدكتور أبو العلا عفيفي.

أفلاطون، مثلاً، يصف الفيلسوف بأنه شخص غايته معرفة الأمور الأزلية. أو الوصول إلى حقائق الأشياء، أو الارتقاء من العلم بشئون حياتنا الوهمية إلى إدراك مسائل الحياة الأزلية. وهو يصدر في ذلك عن نظرية عرف بها، نظرية المعاني أو المثل، التي ترى العالم المحسوس الذي نحيا فيه حياتنا الراهنة عالم أشباح زائلة، لحقائق أزلية أبدية لا تحس، وإن لم يكن من المستحيل إدراكها إن اصطنعنا التأمل العقلي الخالص من أوهام الحس والبدن. فيصبح العلم بأمور هذا العالم تافهاً، في حين يصبح العلم الحق هو الإحاطة بعالم الحقائق الأزلية الروحية، وما ذلك العلم غير الفلسفة. بل نراه يقول: "الفيلسوف الحق هو ذلك الذي يسعى إلى انتزاع الروح من الجسد"[1] ألا يلخص ذلك القول نظريته في العلاقة بين الروح والجسد، التي ترى الإنسان لا مركباً من روح وجسم، بل تراه روحاً حلت عرضاً في جسد هو سجن لها ينبغي أن تتحرر منه؟

وشيشيرون، الخطيب الروماني، بنافح عن الفلسفة الرواقية التي تدين بالفضيلة غاية للحياة، وترى السعادة في الخضوع لمحتوم القضاء، والإذعان للقدر، والابتسام للخطوب، والرضا بواقع الأمور. ذلك أن الأمور ليست فوضى، إنما هي وفق إرادة عليا خيرة عاقلة، ثم هي فضلاً عن ذلك منبثة في أرجاء الكون، حالة في جنباته. حتى لتصبح السعادة شأناً من شئون النفس لا يتوقف على الظروف الخارجية، ولا يرتهن باعتدال الأمور أو تقلب الأحوال، إنما هي طوع أمرك إن ارتضيت حكم الإرادة الكلية،

---

[1] (فيدون) من محاورات أفلاطون.

وازدريت اللذات الجسدية. ينافح شيشيرون عن الفلسفة الرواقية هذه، فهل نعجب حين يذكر في معرض الحديث عن الفلسفة: "أيتها الفلسفة! أنت المدبرة لحياتنا: أنت صديق الفضيلة وعدو الرذيلة، ماذا تكون حياة الإنسان لولاك؟!" أو حين يضع حدود المعرفة الفلسفية بقوله "إن الفلسفة هي العلم بأفضل الأشياء، والقدرة على الانتفاع به بكل وسيلة ممكنة".

إن شيشيرون بقوله هذا لم يعرف الفلسفة بقدر ما عرفنا وجهة نظره الخاصة.

وأرسطو، المعلم الأول، يقسم الفلسفة إلى فروع عدة جميعها حكمة، بيد أن "ما وراء الطبيعة" أحق تلك الفروع باسم الحكمة. وهو يسمى علم ما وراء الطبيعة "الفلسفة الأولى" في مقابلة "الفلسفة الثانية" ويعني بها العلم الطبيعي. ويعرف الفلسفة الأولى بأنها العلم الإلهي الذي يبحث في الله، المحرك الأول، مسبب الأسباب وعلة العلل، ذلك أن دراسة الله عبارة عن دراسة الموجود من حيث هو كذلك، فضلاً عن أن الطبيعة الحقة الموجود تتجلى فيما هو دائم لا فيما هو زائل.

وإليك مثالاً من الشرق العربي، عالم مسلم مشبوب العاطفة الدينية وذلك هو الجرجاني، بطل التعريفات، يعرف الفلسفة بأنها "التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية". فيأتي تعريفه خير معبر عن نزعته الفكرية، فكيف ننتظر منه أن يكون تعريفاً للفلسفة في ذاتها؟!

وإذا كان معنى الفلسفة يختلف من فرد إلى آخر فهو يختلف كذلك من عصر إلى آخر. كان في القرون الوسطى العلم الذي يصل إليه العقل بطريق النظر الفكري الصرف، في مقابلة العلم الإلهي الذي يصل إليه الإنسان بطريق الوحي.

وهكذا صار معني الفلسفة العلم العقلي المنظم. وفي العصور الحديثة تدل كلمة فلسفة على مجموعة العلوم النظرية التي تستند إلى النظر العقلي الصرف في مقابلة مجموعة العلوم المستندة إلى الملاحظة والتجربة.

ناهيك بشتى التعريفات التي تنكر الفلسفة وتزدري الفلاسفة، يطلقها نفر من المتزمتين الحرفيين في تدينهم، يصدرون في تعريفهم لها عن تهيب من العقل، وخشية على إيمانهم السطحي من عمق التأمل العقلي؛ أو يتفكه بها قوم من المازحين الجهلاء يصدرون في تعريفهم لها عن العداء لما يجهلون. فمن تعريف لها بالكفر والزندقة، إلى القول بأنها تعقيد البسيط، إلى اتهامها بتهمة الثرثرة والقدرة على الحديث حين ينبغي وحين لا ينبغي، أو قوة الحجة في مجال الحق أو مجال الباطل على حد سواء.

فقد اتضح إذن بعد هذا العرض السريع أنه لا سبيل إلى الوقوف على حقيقة الفلسفة من تعريفاتها، كما أنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة المرء من بطاقته، أو الكتاب من عنوانه. وإن تم التعريف عن أمر ما، فعن اتجاه صاحبه العقلي، أو نظريته الفلسفية أو شعوره نحو النهج الفلسفي منكراً كان أو مؤيداً.

إن تعريف الفلسفة قد يوهم القارئ أنها مجرد علم من العلوم، ابتدأه أو ابتدعه ذلك النفر من الحكماء، وتعاون على إقامته وتطوره أجيال الفلاسفة، في حين أن الحقيقة التي تخفى على الكثيرين من طلاب الفلسفة المبتدئين، أن الفلسفة أسلوب من أساليب التفكير البشري، وناحية من نواحي النشاط الفكري. فالإنسان المنطوي على طلب المعرفة، المطبوع على تفسير الظواهر، المتلف على تلمس العلل والأسباب والغايات، كما ينهج النهج الخرافي في تفكيره قادر إذا ما بلغ طوراً من التقدم العقلي أرقى، وإذا ما تهيأت له ظروف مادية خاصة، على أن ينهج نهجاً فلسفياً. بل إن بذور التفكير الفلسفي لتبرز في طفولة المرء وفي طفولة البشرية. وقد انتهيت فيما سبق بعد استعراض أمثلة من الشرق القديم إلى أن الخرافة أو الأسطورة وإن كانت تطبع التفكير الشرقي القديم، فإن الفلسفة كانت تطل برأسها بين الفينة والفينة، وفي ذلك المحيط من ظلام الفكر حيث تتراقص المردة والأشباح والشياطين التي تراها عين الخيال وتذكيها العاطفة والهوى، كانت تنبثق أحياناً بروق فلسفية ومحاولات لتفسير الأمور تفسيراً عقلياً، فتغالب الأشباح وتبدد الخرافات إلى حين.

وأضيف إلى ذلك أن الفلسفة كثيراً ما كانت تبلغ الأوج دون أن تبدد الأشباح تبديداً تاماً. وكثيراً ما ألمت بها نكسات لا يزال التاريخ يذكرها. فقد أعقب العصر الذهبي للفلسفة اليونانية إبان القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد ذبول هو ارتداد إلى الفكر الشرقي القديم؛ من حيث الامتزاج بالدين، والاقتصار على مباحث الأخلاق، والميل إلى التصوف الذي هو في حقيقة الأمر نوع من الإعراض عن العلم العقلي الذي يستند

إلى الدليل والبرهان، والاكتفاء باليقين القلبي والإيمان. وفي عام ٥٢٩ بعد الميلاد أغلق الإمبراطور يوستنيانس مدارس الفلسفة في أثنيا، وكانت قد أقفرت من التلاميذ، وتناقص عدد العلماء فيها وخمد الفكر الفلسفي في اليونان ليذكر في الشرق، في ربوع فارس حيث كسرى أنوشروان، صديق الفلسفة الذي فتح ذراعيه للنازحين من ربوع الاضطهاد الفكري.

الفلسفة والشعر

بل إن أطول الفلاسفة باعاً في ميدان التأمل ليس بمنجاة من شطحات الخيال، ونزوات الشعر، وضغط القصائد المكبوتة تعصف ببنائهم الفلسفي بين حين وآخر، حتى لتكاد من قوتها لدى البعض أن تسلكهم في عداد الشعراء المتفلسفين، أو الفلاسفة الشاعريين. فذاك أفلاطون: برغم عبقريته الفلسفية، وتناسق مذهبه، وتكامل آرائه، تعصف به في رحلة الفكر أنواء الخيال، وتهب عليه في جفاف البحث العقلي نسمات شاعرية تتبدي في نظرية المثل وما يورد لها من تشبيهات، كقصة الكهف المشهورة التي ترى الحياة الدنيا أناساً يحيون في كهف مظلم، مقيدين بالأغلال حتى ليقضون العمر مولين ظهورهم لباب الكهف لا يستطيعون حراكاً، وموكب الحياة والأحياء ماض في سبيله أمام باب الكهف لا يرون منه غير أشباح وأخيلة، ترسلها شمس قوية من خارج على جدار الكهف. فهم لطول العهد بتلك الأشباح، ولحرمانهم من معرفة الأصول التي تنبعث عنها، يظنون لجهلهم ومحدود فكرهم أنها الحقائق. كذلك شأننا في الحياة الدنيا، طال مقامنا فيها، وكبلتنا أغلال الحس وسلاسل البدن، فتوهمنا الكائنات

المادية حقائق واقعة، في حين أنها صور زائلة لحقائق باقية، ومسوخ مشوهة لمثل كاملة؛ ثم يمضي أفلاطون الحالم بعالم كامل تتحقق فيه المثل العليا التي يطمح إليها، مثل الحق والخير والجمال، ليتمثل عالماً آخر يجد فيه ملاذاً من نقائص عالمنا، ثم يدعو الناس أن يحلموا معه في قول شاعري حلو يورده في محاوراته "المأدبة":

"إن ما يعطي قيمة لهذه الحياة إنما هي مشاهدة الجمال السرمدي نقياً لا تشوبه شائبة، بسيطاً لا تغطيه أشكال وألوان مصيرها إلى الفناء. هذي مراحل الحب يقطعها في البحث عن ضالته، وشفاء لغليله، فهو واسطة ومساعد يحفز النفس إلى الكمال، ويهيج الذكرى القديمة: ذكرى المثل والحياة السماوية الأولى، ذكرى الفردوس المفقود تحن إليه بكل جوارحها. والمحب الحقيقي الكامل هو الفيلسوف، يزدري الجمال الزائل الذي يملأ النفس جنوناً ليتعلق بالجمال الدائم"[1].

وبعد فذلك تأمل أفلاطون، فلسفة تمتزج بالوجدان: فيها تطلع إلى الجمال، فيها حنين إلى عوالم مبتغاة، فيها ذكريات وحب وأمل نبيل. ولا عجب فقد زاول أفلاطون الشعر في شبابه ثم صرفه عنه أستاذه سقراط.

وهذا برجسون في العصر الحديث يتميز أسلوبه بطابع رقة وروح فنية تتبدي في منهجه الفلسفي الذي يسلكه في الوصول إلى الحقيقة، مقابلاً به منهج الاستدلال العقلي الذي يشوه الواقع ولا يزودنا منه إلا بوجهة نظر

---

[1] نقلاً عن الأستاذ يوسف كرم في تاريخ الفلسفة اليونانية.

سطحية تجريدية، ذلك هو منهج الحدس أو الذوق (intuition) كما يحلو للبعض أن يسميه. ويعرفه برجسون بأنه نوع من التعاطف العقلي يتعمق المرء بواسطته كنه الأمور وجوهرها.

وابن سينا– الشيخ الرئيس– يصوغ نظريته في النفس وخلودها وسبق وجودها على الجسد في قصيدته المشهورة التي يبين فيها كيف هبطت النفس إلى الجسد من عالم آخر على الرغم منها، وكيف سجنت في ذلك الجسد، وكيف تسعى إلى التحرر منه، والعودة ثانية إلى العالم النائي، عالم الروح الخالد:

هبطت إليك من المحل ... ورقاء ذات تمنع وترفع
محجوبة عن كل مقلة ناظر ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك ... كرهت فراقك وهي ذات

* * *

إن كان أهبطها الإله ... طويت عن الفذ اللبيب
فهبوطها لا شك ضربة ... لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين فخرقها لم يرفع

ذلك شعر وخيال، ومع ذلك فقد كان الشيخ الرئيس فيلسوفاً لأنه يأبى أن يبرهن على روحانية النفس وجوهريتها وخلودها برهنة منطقية[1].

[1] النجاة لابن سينا.

أما محي الدين بن عربي، زعيم التصوف الفلسفي في الإسلام، فيصوغ جل مذهبه قصائد شعرية، زاخرة بحر الوجدان، ومشبوب العاطفة، يعبر عن نظرية وحدة الوجود التي ترى الكون والله كائناً واحداً لا وجودين منفصلين، وترى كل موجود مظهراً من مظاهر الله أو مجلي يتجلى به الله لعباده حتى ليستوي في نظره كل موجود ويتحد كل دين، يقول:

لقد كنت قبل اليوم أنكر إذا لم يكن ديني إلى دينه
وقد صار قلبي قابلاً كل فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني ركائبه فالحب ديني وإيماني

* * *

وبعد فلست أريد أن أقحم نفسي في الأدب فأتمثل بشعر أبي العلاء المعري أو رباعيات عمر الخيام أو أناشيد طاعور الصوفية، لأبين بعض ما تنطوي عليه من فلسفة عميقة تكسب شعر هؤلاء رصانة، وتزيده رونقاً وبهاء إنما أريد أن أخلص إلى أن النشاط الفكري تيار معقد متشابك متعدد الاتجاهات، وهو إلى ذلك تيار دائب الحركة مستديم الفوران. فالعقل منذ نشأته، يحاول معرفة الواقع كما هو، وإرجاع المعلول إلى علته، أو كشف الستر عن غايته. فإن كان الإنسان طفلاً في بداوة الفكر وطراوة الذهن، فالخيال مزود إياه بتفسيرات لا أساس لها من الصحة، والإيمان مثبت لتلك التفسيرات لا لشيء إلا لأنها تصادف هوى في نفسه، فلا يصبح– وقد آمن– في حاجة إلى البحث عن دليل أو برهان. وما الداعي إليهما وقد

اطمأن قلبه إلى ما وصل إليه من تفسير. ألا ترى إلى المصري القديم مطمئناً كل الاطمئنان إلى خلوده؟ لا خلود روحه فحسب، بل خلود جسده أيضاً، واثقاً من البعث حيث يلقى جزاء ما كسب وحساب ما اكتسب؟ حيث يستمتع بما حرم منه في هذه الحياة من نعماء، بل حيث يلقى العوض عما لقي فيها من ضراء ؟!

ما سر يقينه ذلك الذي لا يقبل الشك؟ رغبة في الخلود قابعة في كل نفس، وسعى حفي إلى اللذة الكبرى التي تقصر عنها حياة الأرض القصيرة الغاصة بالمتاعب والآلام. رغبة محتدمة، وهوى مستبد، وطموح متطلع إلى المجهول، تسخر جميعها المطية الذلول، الخيال، ليفسر الكون ويكشف عن سر الوجود. بيد أنه عندما تكثر المعارف الواقعية، وتبدو الحقائق الخافية، ويكشف الإنسان وهمه فضلاً عن جهله، لا يجد مناصاً من مواجهة الواقع، والسعي إلى رد المعلولات إلى العلل، ونسبة المسببات إلى السبب؛ تارة في تحرر نهائي من الأهواء وتنحية للخيال، وتارة في تحرر جزئي منها دون تملك تام لناصية الأمور. إن فعل المرء ذلك قيل إنه عالم أو فيلسوف: عالم إن اكتفى بتقرير الواقع وإرجاع الظواهر المحسة إلى أسبابها، وسعى إلى كشف قوانين العالم الطبيعي دون غيره، باستخدام منهج الملاحظة المباشرة والتجربة المحض، وفيلسوف إن أوغل في التفسير متعدياً حدود العالم الطبيعي، متجاوزاً البحث في الجزئيات إلى البحث فيما هو أعم وأرحب، مستخدماً منهج البرهان المنطقي والاستدلال العقلي.

أميز هنا بين الفلسفة والعلم برغم أن العصور القديمة بل والحديثة حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادي لم تألف هذا التمييز، فكان جماع المعارف النظرية الحرة من الأسطورة ينضوي تحت كلمة فلسفة أو حكمة، ولم يميز العقل الإنساني ذلك التمييز الحاسم بين شطري النشاط الفكري المتكامل، إلا في مطلع القرن السابع عشر، أي في أعقاب عصر النهضة بما خلق من نهضة علمية تجريبية قامت على أنقاض الاتجاهات الفلسفية التقليدية.